من زاوية تربوية

ولا يزالون مختلفين..

تقديم:

أ.د/ خالد محمود محمد عرفان

عميد الكلية التربية بنين جامعة الأزهر بالقاهرة

ولا يزالون مختلفين..

حكم رباني، وفطرة إنسانية، ومطلب اجتماعي، وواقع تربوي.. فمن ينكر أن الناس مختلفون؟! لقد أسست هذه الكلمات القرآنية لعلم من أهم فروع علم النفس في التاريخ المعاصر وهو علم نفس الفروق الفردية. والآية ليست الوحيدة التي تقر بالفروق الفردية والاختلاف بين الناس فهناك العديد من الآيات التي توضح ذلك منها قوله تعالى: "أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" (32الزخرف: 32)"

درجات بكل عموميتها في العقل والعلم والرزق وفي الاولاد والاموال وفي الصحة وفي الجمال .. وغير ذلك. قال تعالى: "هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ" (آل عمران: 163)

وغيرها الكثير من الآيات، وكذلك ورد في السنة الكثير من الأحاديث التي تقر بالتباين والاختلاف بين الناس؛ فمن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف" (أخرجه مسلم: 2638)

إن الاختلاف بين الناس ليس للتفضيل وإنما للتنوع والثراء؛ فماذا سيفعل المجتمع إذا كان كله أغنياء، أو كله عباقرة؟ بالطبع لن تستقيم الحياة؛ لذا برر الله سبب ذلك التنوع والتدرج بقوله تعالى: (لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف: 32)

إذا الاختلاف مطلب حياتي ليسخر بعضنا لبعض، ولمقابلة التنوع الهائل في احتياجات المجتمع ومتطلباته التي تفوق الخيال.

إن الاختلاف مدعاة للتكامل بين الناس سياسيا واجتماعي واقتصاديا وعلميا، وليس مدعاة للخلاف والصراع بحجة أنني الأفضل عرقا أو دينا أو جنسا أو لونا أو موطنا أو مالا أو عيالا، لذا فصل القرآن في هذا الأمر بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم

مِّن ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13)

فمناط التفضيل هو التقوى والتي من أهم ثمارها نفع الناس والمجتمع. وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ –: إلَّا بالتَّقوَى، النَّاسُ من آدمُ، وآدمُ من ترابٍ" (البيهقي في ((شعب الإيمان)) (5137). فالناس وحدة في المصدر ووحدة في المنتهى تضمن التساوي بين الناس ولو تنوعوا واختلفوا.

إن الاختلاف بين الناس أمر ضروري لمواجهة احتياجات المجتمع المتنوعة والتي تتطلب تنوع في القدرات والمواهب. إن احترام الاختلاف بصفته سنة كونية تتطلب منا احترام الآخر مهما كان أعلى أو أدنى منا، أو كان على صواب – من وجهة نظري– أو على خطأ، حتى وإن كان عاصيا أو كافرا او جاهلا أو فقيرا أو غبيا .. فقد ينجيه الله عز وجل مما هو فيه ويبتليني؛ فنحن لسنا حكاما على العبيد بل شركاء معهم في الحياة.

ومن خلال الخبرة الحياتية نجد أن أي إنسان عاب إنسانا لأمر ألم به إلا وٱبتلي بهذا الأمر في حياته، فلا تغلق الأبواب أمام رحمة الله، ولا تنصب نفسك حكما، ولا تنتحل ما ليس لك، اقرأ هذه الآيات متأملا، قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (آل عمران: 26) فما هو لك اليوم قد يكون لغيرك غدا.

إن هذا التنوع والتباين بين الناس يحتاج منا إلى تنوع في طرق واستراتيجيات وأساليب التعامل معهم، وقد علمنا ذلك رسول الله بقوله: "أنزلوا الناس منازلهم" (رواه أبو داود في سننه) وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة". وروي بسند ضعيف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم" (رواه الدلهمي بسند ضعيف عن ابن عباس).

والمنازل متنوعة من العقل والعلم والمال والسلطان والجاه والسن .. وغير ذلك.

وقد أشار علماء النفس إلى أهمية ذلك في جميع مواقف الحياة خاصة مواقف التعليم والتعلم، وأصبح علم نفس الفروق الفردية علما ركين له تطبيقاته المختلفة في مواقف التعليم والتعلم في شكل مجموعة من استراتيجيات التدريس تسمى "باستراتيجيات تفريد التعليم"، وقد بنيت لمقابلة الفروق الفردية بين المتعلمين العقلية والجسمية والانفعالية والاجتماعية .. بحيث يتعلم كل طالب حسب سرعته وقدراته في التعلم؛ المهم أن جميع الطلاب مهما كان مسواهم سوف يحققون الأهداف كل حسب سرعته وتقدمه في التعلم.

فعليك عزيزي القارئ أن توع أساليبط وطرق تعاملك مع الناس بما يتناسب مع مستوياتهم، دون استعلاء منك أو شعور بالأفضلية، فكن عالما مع العلماء، وباحثا مع الباحثين، وطفلا مع الأطفال، وإذا كنت كذلك استطعت أن تصل اليهم وتأخذ بأيدهم صوب غايات وأهداف التعليم والتعلم.

المعلم الأعظم – صلى الله عليه وسلم– كان أول من طبق الفروق الفردية في تعامله مع الناس وتعليمهم أحكام الإسلام والمواقف التالية تبين ذلك:

الرسول مع زوجاته: فها هو يراعي طبيعتهن، عندما يسألنه: من أحب زوجاتك إليك يارسول الله؟ فيقول: من أعطيتها التمرة بالأمس" وكان قد أعطى لكل واحدة منهن تمرة دون معرفة الأخريات.

الرسول مع أصحابه: فهاهو هو مع أصحابه، يثمن رجل مسعود الدقيقة التي ضحك منها أصحابه عندهما رأوها وهو على النحلة فقال:" اتسخرون من دقة ساق ابن مسعود والله إنه اثقل في الميزان من جبل أحد، وها هو يفضل بلالا لأنه أندى صوتا، وها هو يتخير سفراءه من أكثر أصحابه عقلا وحسن تصرف وحلاوة حديث، وها هو يوجه الشاب الذي جاءه يطلب منه أن يسمح له بالزنا، وها هو يصبر على من قاسمه العداء من قومه، وها هو يعلم الأعرابي الذي بال في المسجد، وها هو يخاطب كل قوم بلغتهم.. فيالك من معلم يا رسول الله.

الرسول مع العجوز: تلك المرأة العجوز التي جاءت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم تسأله أن يدعو لها بدخول الجنة، في الحديث الذي يرويه الحسن رضي الله تعالى عنه وأرضاه، فقد سألته صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو الله لها بأن تدخل الجنة، فما كان من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن قال لها: "لا يدخل الجنة

عجوز، فقال الحسن رضي الله عنه: فولت العجوز وهي تبكي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أخبروها: ليست يومئذ بعجوز، وأنها يومئذ شابة. إن الله عز وجل يقول: إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً" (سورة الواقعة آية 35). استراتيجية الفكاهة في التعليم.

الرسول مع الأطفال، يقول جابر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمشي على أربعة، وعلى ظهره الحسن والحسين رضيَ الله عنهما وهو يقول: نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما" (المعجم الكبير للطبراني (3 / 5)

عن أنس رضي الله عنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له أبو عمير – أحسبه قال: كان فطيما –، قال: فكان إذا جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرآه قال: يا أبا عمير، ما فعل النغير– طائر صغير كالعصفور–؟ قال: فكان يلعب به (رواه مسلم)

فكن كما رسول الله مع الناس، تعامل معهم على اختلافهم، مع كل حسب حالته والطريقة التي تناسبه، تكن معلما ناجحا وزوجا محبوبا، ووالدا حنونا، وصاحبا وفيا، وابنا مطيعا .. وتكن أكثر الناس تعايشا مع الآخر.

وضع في تعاملك مع الآخرين نصب عينيك قوله تعالى:" ولا يزالون مختلفين"

أ.د/ خالد عرفان

عميد كلية التربية بنين بالقاهرة.